

توطئة . مفهوم الفضاء السردى :

تقود دلالة هذا المصطلح إلى الحديث عن مكنن الوجود الإنساني، هذا الوجود الذي يتحقق دوماً في ظلّ فضاء معين، حيث يمارس الإنسان نشاطه اليومي "الفضاء شرط الوجود الإنساني، وتعيينه الذاتي لا يتحقق إلا به، وفيه الحضور والغياب يكونان في الفضاء، فحضر الشخص، أي حلّ في الفضاء، وغاب إي حلّ في فضاء آخر".(1). وفق هذا التصوّر يُدرك الفضاء، على أنّه مكنن الوجود، وأنّه لا وجود خارج المكان حتّى أنّ "المرء حين يستعمل تعبير العالم، فإنّما يستعمل تعبيراً مكانياً".(2). ويقصد به طبعاً المكان الذي تحتلّه الأشياء، ممّا يؤكّد صلة الإنسان بالفضاء الذي يعيش فيه، فهو يسعى بشكل دائم إلى المحافظة على الحيّز المكاني، الذي يُمارس فيه حياته اليومية، وهذه " سيزا أحمد قاسم" توضح فتقول: "رغم اختلاف القيمة التي يضيفها الفرد، على الحيّز الذي يعيش فيه من مجتمع لآخر، ولكن الظاهرة التي تجمع البشر بأسرهم، هي أنّ الفرد يدافع دفاعاً مستميتاً عن حيّزه، وكثيراً ما يمنع الآخرين من الولوج إليه".(3).

دخل الفضاء دائرة الاهتمام على مرّ الزمن، وازداد هذا الأمر تعقيداً في العصر الحديث مع تطور نزعة الإنسان تجاه المكان، ورغبته في السيطرة عليه عبر عن هذا "حسن نجمي" فقال: "خلق الإنسان الشعبي لنفسه عالماً سحرياً، بعيداً كلّ البعد عن عالمنا الواقعي استطاع فيه أن يُلغي كلّ ما يحسّ به في عالمنا من قيود زمانية، ومكانية".(4). فكلماً قدّم الروائي إنجازاً ضخماً، يعكس هذا وعيه بالمكان، وبأهميته في البناء السردى. وهكذا أصبح من الضروري الاعتناء بهذا العنصر البنائي فنّاعل الإنسان مع الفضاء، هو الذي يمنحه فعاليته" يتفاعل مع الزمن، فإنّ المرء بقدر ما يُنظّم الفضاء؛ يُنظّمه الفضاء، اختراق متبادل تفاعل يدخله المرء عبر سيرورة تجربته في الوجود وعبر اضطراد تشكل تصوراتهِ وخبراته وتشيد معرفته".(5).

(1) جوزيف إكسبير: شعريّة الفضاء الروائي، (ترجمة لحسن حمامة)، إفريقيا الشرق، (د ط)، بيروت، لبنان، 2002 م. ص 7.

(2) رينيه وبلك، أوستن وارين: نظرية الأدب (ترجمة: محي الدين صبحي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2 بيروت، لبنان، 1981م. ص 224.

(3) سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، القاهرة مصر، 1984م. ص 38.

(4) نبيلة إبراهيم: قصصنا الشعبي (من الرومنسية إلى الواقعية)، مكتبة قباء للطباعة، ط 1، القاهرة، مصر 1992 م . ص 45.

(5) حسن نجمي: شعريّة الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية) دراسة نقدية، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت لبنان، 2000م. ص 32.

لا يوجد الفضاء السردى إلا من خلال اللغة، فهو فضاء تلفظي، لذا فهو يشكل موضوعاً للفكر، الذي ينجزه السارد بكل مكُوناته، ويحمله طابعاً مماثلاً للواقع المعيش. فالفضاء بنية ضرورية للسرد، يرتبط بالزمن ويقوم صلوات وثيقة بالشخصيات التخيلية، ويربط علاقات مع الحدث، فالمكان لا ينبني إلا من خلال اختراق الأبطال له "وعليه فإنّ بناء الفضاء الروائي يبدو مرتبطاً بخطية الأحداث السردية".(1).

حاز الفضاء عدّة تصوّرات، تميزت بالتركيز على جوانب مختلفة منه، إذ يشير الفضاء في أكثر تحديداته لدى: "غاستون باشلار" (GASTON BAGHELARD) إلى مفهوم البيت، فهو يعتقد أنّ "كلّ الأمكنة المأهولة حقاً، تحمل جوهر فكرة البيت (...). وأنّ الخيال يعمل في هذا الاتجاه، أينما لقي الإنسان مكاناً يحمل أقل صفات المأوى".(2). حين يتحدث "باشلار" عن الفضاء السردى، يميّز بين الأماكن العدوانية، والأماكن الأليفة، التي يمكنها الكشف عن الصلة الحميمة، التي تنشأ بين الأمكنة المتخيلة، والشخصيات الروائية، وقد منح للفضاء بُعداً فلسفياً لعلّ هذا ما يشير إليه "إنّ كلّ أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها، من الوحدة والتي استمتعنا بها، ورغبتنا فيها، وتألّفنا مع الوحدة، تظلّ راسخة في داخلنا لأننا نرغب في أن تبقى كذلك".(3). في سياق هذه الدلالة، يصبح الفضاء السردى جزءاً من ماضي الشخصيات، وذاكرتها. كما يشير المصطلح إلى ذلك الفضاء الذي يعيشه الأديب كتجربة جمالية، من هذا المنظور يضيف "حسن نجمي" أنه: "لا يمكن للفضاء الروائي كتجربة معين للمتخيل أن يكون بلا معنى".(4).

كما قام "يوري لوتمان" (YOURI LOTMAN) بإرساء مفهوم جديد للفضاء، يعطيه دلالة مغايرة فهو "مجموعة من الأشياء المتجانسة، من الظواهر، أو الحالات، أو الوظائف

(1) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء المغرب 1990م. ص.29.

(2) غاستون باشلار: جماليات المكان، (ترجمة غالب هلسا)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3، بيروت لبنان، 1987م. ص 36 .

(3) المرجع نفسه، ص 40 .

(4) حسن نجمي : المرجع نفسه ، ص 84 .

أو الأشكال المتغيرة. تقوم بينهما علاقات، شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة العادية مثل: الاتصال والمسافة.(1). والفضاء بهذا المنظور يتمتع باتساع دلالي، فيتحوّل عن طريق اللغة الإيحائية الدالة، من مجرد بناء الأمكنة الموصوفة إلى فضاء دلالي، محمّل برؤى وقيم دالة. كما اهتم "لوتمان" في بحثه "بوظيفة لغة العلاقات المكانية، وقد اعتبرها وسيلة من الوسائل الرئيسية لوصف الواقع.(2). ويؤكد بدوره على مدى خصوبة الدراسات المهتمة بالفضاء المكاني، من خلال اعتماده على مبدأ التقاطب، كإجراء منهجي يمنح التحليل ثراءً واسعاً ويكشف عن الأبعاد الدلالية للمكان.

ويُظهِرُ "هنري متران" (HENRI MITTRAND) أنّ مسألة توزيع الأمكنة في النص الأدبي "لا تتمّ بوحى من الصدفة، أو خضوعاً لخطة اتفاقيه، وإنما وفق قواعد شكلية موروثه مشيراً إلى أنّ التعامل مع هذه القواعد يجب أن يتّجه إلى الوعي بتجربة المكان، والقبض عليه في تمظهراته الواقعية، والرمزية، ثمّ التعرف على العلاقات البنوية العميقة التي توجّه النص وترسم مساره.(3). فالفضاء في نظره يكتسب معاني جديدة، تجعله أكثر إسهاماً في إنتاج الدلالة.

انطلاقاً من هذا الأساس فإنّ دراسة الفضاء ينبغي أن يتمّ بناؤها وفق رؤية تتّصل بتجربة الكاتب، ووعيه بأبعاد المكان، ودلالاته في النص السردي، على الرغم من تعدّد الاجتهادات النقدية، التي تحاول التنظير للفضاء السردي إلا أنّ مفهومه ظلّ غامضاً، فكلّ دراسة تكاد تفرد له تعريفاً خاصاً يتناسب مع منطلقاتها النظرية.

انشغلت "البنوية التكوينية بدراسة مقولات الحكيم وصيغ أحداثها، وبالأوليات، هذا يعني أنّها اتّجّعت أكثر إلى العناية بصيغ السرد، دون أن تمنح أيّ تصوّر واضح لهذا المكوّن بمفرده، بل ربطته مع باقي المكونات السردية الأخرى، من مثل الشخصيات، والأحداث والزمن، أيضاً مفهوم الرؤية الذي أدْرَجْتُهُ ضمن مجالات بحثها سيكون له فعالية قصوى في التحليل، من حيث إسهامه في إعطاء الفضاء السردى مكانته، في الجهاز التصوري للدراسة السردية، وبحث الصلة التي تربطه بباقي عناصر الحكيم، والدلالة الناتجة عن هذه الصلة "يرقى بالعلاقات المكانية المعتادة، إلى مستوى النموذج المكاني القابل للتحليل، وفقاً لطبيعة

(1) شريط أحمد شريط: الفضاء (المصطلح والإشكاليات الجمالية)، الحياة الثقافية، الشركة العالمية للطباعة، تونس 1994م. ع67، ص 26.

(2) المرجع نفسه، ص 33.

(3) جنيت وآخرون: الفضاء الروائي، (ترجمة عبد الرحيم حزل)، إفريقيا الشرق، (د.ط)، بيروت، لبنان، 2002م. ص 7.

واشتغال المادة المكانية في الخطاب الروائي.(1).

شعر العديد من النقاد العرب، بهذه الثغرة الموجودة في الدراسات النقدية العربية حول مفهوم الفضاء في الحكى، فسعوا إلى تداركها، من خلال تمهيد سبل المعرفة النظرية والممارسة التطبيقية، لذا تحفل الساحة العربية بمفاهيم لا تقلّ التباساً عن نظيراتها الموجودة في الساحة الغربية "إذا كان الباحث لا يسعه إلا أن يعترف بحداثة استخدامات هذا المصطلح في الميدان الدراسات الأدبية المعاصرة، فإنّ تجلّياته في النصوص الإبداعية وتأثيره في حياة المبدعين غائرة في تاريخ الأدب العربي (...). ولعلّ ظاهرة الوقوف على الطلل في الشعر الجاهلي من أبرز التجارب والنماذج الإنسانية، وأهمّها من حيث الصلة القوية، التي تكوّنت بين الشاعر والفضاء، والذي ظلّ الفضاء الهاجس الخفي الذي يشدّ الإنسان إليه، بمجموعة القيم النفسية، والغرائزية". (2). فالشاعر العربي كان يطلق هالة من التبجيل، على الأطلال التي تذكره بالأهل والأحباب، وبذلك يدرك القارئ الاهتمام الذي منحه الإنسان العربي للمكان منذ القديم.

يجد القارئ تبايناً في وجهات نظر النقاد العرب، حول مصطلح الفضاء ف "حسن بحراوي" يعرفه بأنّه "ليس في العمق سوى مجموعة من العلاقات الموجودة بين الأماكن والوسط، والديكور الذي تجري فيه الأحداث والشخصيات التي يستلزمها الحدث". (3). فالفضاء إذاً يتعدى كونه مجرد بناء هندسي ليصبح نسيجاً سردياً، يشكّل شبكة من العلاقات الناشئة بين عناصر الحكى، ويتحوّل إلى محور أساسي للمادة الروائية.

كما اهتمّ "حميد لحميداني" بمصطلح الفضاء فهو "مجموع الأمكنة، التي تقوم عليها الحركة الروائية، المتمثلة في سيرورة الحكى، سواء تلك التي تمّ تصويرها مباشرة أم تلك التي تدرك بالضرورة، بطريقة ضمنية، مع كلّ حركة حكاية". (4). والفضاء في ظلّ هذا التوضيح "أشمل وأوسع من معنى المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكون للفضاء، ومادامت الأمكنة غالباً ما تكون متعددة، ومتفاوتة، فإنّ فضاء الرواية هو الذي يلقّها جميعاً، إنّه العالم الواسع، الذي يشمل جميع الأحداث الروائية". (5). بمعنى أنّ الفضاء السردى بهذا التصور

(1) جنيت وآخرون: المرجع السابق، ص 7.

(2) شريبط أحمد شريبط: المرجع السابق، ص 25.

(3) حسن بحراوي: المرجع السابق، ص 31.

(4) حميد لحميداني: المرجع السابق ص 64.

(5) حميد لحميداني: المرجع نفسه، ص 63.

الواسع، الذي يشمل جميع الأحداث الروائية". (1). بمعنى أنّ الفضاء السردى بهذا التصور يشير إلى العالم الروائي بأكمله، بما فيه من شخصيات وأحداث.

يأخذ الفضاء البعد المفهومي ذاته مع "حسن نجمي" حين جعل من الفضاء السردي أساس البناء الروائي، فهو يرى أنّ "الفضاء الروائي ليس مجرد تقنية، أو تيمة، أو إطار للفعل الروائي؛ بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية، ولكلّ كتابة أدبية." (2). هنا يأخذ الفضاء السردي بعداً، متّصلاً بالحياة النفسية للإنسان، لأنّ النصّ عموماً لا يصوّر الفضاء تصويراً طبوغرافياً، وإنّما يصوّره حسب رؤية الشخصية، ممّا يعني أنّ الروائي يُؤسّس المكان، مثلما يصنع الشخصيات، والأحداث، والفضاء بهذا المعنى ليس هو ذلك الحيز الذي تواضع عليه البشر، بل إنّه أكثر من ذلك وأعمق، حيث يتجاوز حدود الشخصيات الروائية، وحدود النصّ ليطمأه مع القارئ، بوصفه شخصية تتطابق مع الشخصيات وتنتج نصاً آخر. (3). وهذا يؤكد أنّ الفضاء لم يعد مجرد خلفية تقع فيها الأحداث الدرامية، وإنّما يدخل في علاقة متبادلة للتأثير مع وعي القارئ.

ظهرت إلى جانب هذه الحركة النقدية مصطلحات مختلفة، تدلّ على المكان، وقد قدّم "عبد المالك مرتاض" أحد هذه المفهومات، حين منح الأهمية لمصطلح الحيز، ذلك أنّ الفضاء عنده: "هو كلّ ما عني حيزاً جغرافياً حقيقياً، حيث نطلق الحيز في حدّ ذاته على كلّ فضاء خرافي، أو أسطوري، أو كلّ ما يفيد عن المكان المحسوس كالخطوط، والأبعاد، والأحجام والانتقال، والأشياء المجسّمة مثل الأشجار، والأنهار، وما يعترى هذه المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير." (4). ويؤكد "مرتاض" أنّ مصطلح الفضاء قاصر، بالقياس إلى الحيز؛ لِمَا يمكن أن يشكّله من بعد مادي "الفضاء يكون معناه جارياً في الخواء والفراغ، بينما الحيز ينصرف استعماله على النوء، والوزن، والثقل، والحجم، والشكل (...). نريد أن نقفه في العمل

(1) حميد لحميداني: المرجع السابق، ص 63.

(2) حسن نجمي: شعرية الفضاء، ص 59.

(3) جوزيف إكسير: شعرية الفضاء الروائي، ص 10.

(4) عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة، لرواية زقاق المدن)، ديوان

المطبوعات الجامعية، (د ط)، الجزائر، 1995 م . ص 245.

الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي وحده." (1).

وقد آثرت "سيزا أحمد قاسم" استعمال مصطلح المكان، اتساقاً مع لغة النقد العربي فالفضاء في نظرها: " ليس حقيقة مجردة، إنما يظهر من خلال الأشياء التي تشغل الفراغ أو الحيز، فأسلوب تقديم الأشياء هو الوصف".(2). يكون المكان بذلك ضرورياً، لتشييد الفضاء الروائي، من خلال فعاليتها لقصوى، في تصوير واقع الأحداث، والتأطير لها، لذا لا يمكن عدّه عنصراً محايداً في الأحداث، فالصلة الحميمية التي تنشأ بين الأماكن المتخيلة والشخصيات الروائية كما يشير إليها "غاستون باشلار" قائلاً: "إنّ كلّ أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة، والتي استمتعنا بها، ورغبتنا فيها. تظلّ راسخة في داخلنا لأننا نرغب في أن تبقى كذلك".(3). وهذا ما يفسّر سرّ بقاء بعض الأماكن الأليفة عالقة بذاكرة الأشخاص لا يمكن نسيانها في حين تتعرض الأماكن الأخرى للنسيان بمجرد الابتعاد عنها ، في سياق هذه الدلالة يصبح الفضاء المكاني جزءاً من ماضي الشخصيات وذاكرتها.

يهدم غياب عنصر المكان العمل السردى؛ كونه عنصراً متحكماً في الوظيفة الدلالية للسرد، لذا فالبحث سيعتمد إلى احتضان هذا التصور بإدراج عنصر المكان والاشتغال عليه و يمكن الانطلاق من هذا الإجراء المنهجي، لمقاربة الفضاء السردى، من البحث عن تشكلاته المختلفة، ونظام اشتغاله في السرد، من دون عزله عن باقي عناصر الحكى، ذلك لأنّ هذا ما قال به "جوزيف إكسبير": "لا يمكن بأيّة حال أن يكون منعزلاً مع المكونات السردية الأخرى كالشخصيات والأحداث والزّمن . وعدم النظر إليه في تفاعله مع هذه المكونات يجعل التأويل قاصراً عن إدراك الأبعاد الدلالية".(4). فالفضاء بهذا يعدّ مجموع العناصر المكونة للنص، وكذا مجموع العلاقات التي تنسجها هذه العناصر فيما بينها. وهذا المفهوم مرتبط أشد الارتباط بمفهوم المبنى.

(1) عبد المالك مرتاض: نظرية الرواية (بحث في تقنية السرد)، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، الجزائر، 1983م. ص141.

(2) سيزا أحمد قاسم: المرجع السابق، ص 76 .

(3) غاستون باشلار: المرجع السابق، ص 40 .

(4) جوزيف إكسبير: شعرية الفضاء الروائي، ص 10 .